

مواقف التوديع

في

الشعر العربي



## مواقف التوديع في الشعر العربي

في أدبنا العربي مواقف كثيرة تتعلق بالجوانب الإنسانية وحياة الإنسان كمواقف الفرح والمناسبات السعيدة ، ومواقف الفخر والاعتزاز ، ومواقف الإعجاب ومواقف السخرية والتهكم ، ومواقف الكراهية والذم ، ومواقف الحزن والأسى وقد استفاض فيها الشعراء والأدباء ، فتناولوا أبعادها وما يكتنف الإنسان فيها من مشاعر وأحاسيس وما يعتمل في خاطره من هواجس وأفكار تعصف بالإنسان عصفًا وتجتاحه من أقصاه إلى أقصاه .

في مثل هذه المواقف تختلط المشاعر وتتداخل الأحاسيس وتعمل في الصدور فتفيض عبرات حارة محملة بلفح الجوى وشواظ الهجران .

إن المتأمل هذه اللحظات يجد عجبًا ، فالنفس البشرية تألف الاجتماع وتأنس بالقرب واللقاء ، لأنها فيه تفر وتسد وتحظى بالاطمئنان ، وتلك سمة فطرة الله الناس عليها وأودعها في دخائل النفس البشرية ، فما تنفك تسعى للقاء جاهدة وتمسك به ما وسعها التمسك ، لما في القرب من غنم وفائدة ، وتنفر النفس البشرية من التوديع وما يكتنفه من أسى وألم ، فتتحمله كارهة ، وتمربه متألمة وتعيش بعده جازعة مجروحة محترقة ،

وحين تتأمل حياة الكائنات تجد ما يروعك ويملك عليك جماع نفسك فالطيور تهاجر آلاف الأميال بحثًا عن الرزق ، ولكنها لا تتحمل الفراق كثيرًا ، لذلك سرعان ما تعود لتحظى بالقرب واللقاء حيث ألفت وعاشت ، وكذلك الإنسان .

وعبر هذه الأسطر القليلة نلقي الضوء على مواقف الوداع في قصائد الشعراء الأقدمين، والمحدثين ونتأمل هذا الجانب العاطفي ونعرض بعض الشواهد والمواقف التي تذكرنا بأن حياة الإنسان رحلة تبدأ بالولادة وتنتهي بانتهاء الأجل، وفي مشهد الوداع تسيل الدموع، وتتأجج المشاعر وتتهافت الأحلام، ويقدر ما تكون المودة والتآلف والانسجام حال اللقاء، يكون العراق أشبه بانفصال الروح عن الجسد وتبلغ المشاعر ذروة الانفعال وتحترق الأنفاس وتعلم الدنيا في عيني العاشق الولهان حتى يشعر كأن روحه فارقت جسده، وقد برع فحول الشعر في العصر الجاهلي في تصوير هذه المواقف الإنسانية وما يعترى النفس لأن حياة العرب في الصحراء كانت قائمة على الحل والترحال فهذا الأعشى (ميمون بن قيس) وهو من شعراء المعلقات يبدأ قصيدته اللامية مودعاً صاحبته هريرة حين تهيأ الركب للرحيل ولم يعد من الوداع بد لكن هذا الموقف أضعفه فلم يجد قوة على قدرة الاحتمال

فقال :

ودع هريرة ابن الركب مرتحل وهل تطيق وداعاً أيها الرجل؟  
وهذا الشاعر الجاهلي يصور لنا حاله بعد فراق أحبته، وكيف جلس شارداً مفكراً تسيل منه العبرات :

ظلمت ردائي فوق رأسي قاعداً أعد الحصى ما تنتهي عبراتي  
وبقول امرؤ القيس مصوراً يوم الرحيل :  
تري بغير الأرام في عرصاتها  
وقيعانها كأنه حَبُّ فُلُقُل  
كأني غداة البين يومَ تحمّوا  
لدى سمرات الحى ناقفُ حنظل

وَقُوفاً بِهَا صَنَحْتَنِي عَالِي مَطِيئِهِمْ

يقولون : لا تهلك أسى وتَجَمَّل

وإن شِيفَانِي عَابِرَةٌ مَهْرَاقَةٌ

فهل عند رسمِ دَارِسٍ من مُعَوَّلٍ؟

ويصور لنا ابن زريق البغدادي حاله ، وهو راحل عن زوجته التي تركها في بغداد مبتعداً عنها بحثاً عن الرزق بعد أن ضاقت به السُّبُل فسافر إلى الأندلس من أجل المال ليقيم عثرته فمات غمّاً وكمداً ولفظ أنفاسه هناك ، فيقول :

أستوده الله في بغداد لي قمرًا  
ودعته وبوجي لو يودعني  
كم قد تشفع بي أن لا أفارقه  
وقد تشبث بي يوم الرحيل ضحى  
لا أكذب الله ثوب الصبر منخرق  
إني أوسع عذري في جنائته  
رزقت ملكاً فلم أحسن سياسته  
ومن غدا لايساً ثوب النعيم بلا  
اعتضت من وجه خلي بعد فرقة

بالكرخ من فلك الأزارار مطلعته  
صفو طيب الحياة وأني لا أودعه  
وللضرورة حال لا تشفعه  
وأدمعي مستهلات وأدمعه  
عني بفرقة لكن أرقعه  
بالبين عني وجرمي لا يوسعه  
وكل من لا يسوس الملك يخلعه  
شكر عليه فإن الله ينزعه  
كأساً أجرع منها ما أجرعه

ويعاتبه أصدقاؤه على ترك من يهوى ، فيستشعر الندم ، ويتمنى لو لم يفارقه

ويرتحل عنه ويتحسر على ما كان منه ، فيقول :

كم قائل لي ذقت البين قلت له

الذنب والله ذنبي لست أدفعه

ألا أقمت فكان الرشيد أجمعه  
لوأنني يوم بان الرشيد أتبعه  
إنني لأقطع أيامي وأنفدها  
بحسرة منه في قلبي تـقطعه  
من إذا هجع النوم بت له  
بلوعة منه ليالي لست أجمعه  
لا يطمئن لجنبي مضطجع وكذا  
لا يطمئن له مذ بت مضجعه  
ما كنت أحسب أن الدهر يفجعني  
به ولا أن بي الأيام تنجعه  
حتى جرى البين فيما بيننا بيد  
عسراء تمنعني حقي وتمنعه  
قد كنت من ريب دهري جازعاً فزعاً  
فلم أوق الذي قد كنت أجزعه  
وما هو يناشد منزله القديم متمنيا أن يرجع الزمان عهداً مضى ، داعياً الله  
أن يحفظ من يهوى ، مبيناً أنه مازال متذرعاً بالصبر لعله يجد بعده فرجاً مما  
آل إليه حاله .

بأنه يامنزل المش الذي درست آثاره  
وعرفت منذ بنت أربعمه  
هل الزمان محيد فيك عيشتنا؟ أم الليالي التي أمضته ترجمه؟

في نمة الله من أصبحت منزله  
 من عنده لي عهد لا يضيعه  
 ومن يصدع قلبي نكره وإذا  
 لأصبرن لدهر لا يمتعني  
 علماً بأن اصطباري معقياً فرجاً  
 عسى الليلي التي أضنت بفرقتنا  
 وإن تنزل أحداً منا منيته  
 وجاد غيث على مفناك يمرعه  
 كما له عهد صدق لا أضيعه  
 جرى على قلبه نكري يصدعه  
 به ولا بي في حال يمتعه  
 فأضيق الضيق إن فكرت أوسمه  
 جسمي ستجمعني يوماً وتجمعه  
 فما الذي بقضاء الله يصنعه

ويقول البهاء زهير، مصوراً حالة محبوبته الجميلة، وقد وقفت تودعه باكياً

حزينة، وجلة خوف الوشاة، وخوف الرقيب وهو يكاد ينفطر أسى وألم، يقول :

جاءت تودعني والدمع يغلبها يوم  
 الرحيل وحادي البين منصلمت  
 وأقبلت وهي في خوف وهي دمـش  
 مثل الفزال من الأشراك ينقلت  
 فلم تطق خيفة الواشي تودعني وبخ  
 الوشاة لقد قالوا وقد شـممتوا  
 وأفتت أبكي وراحت وهي باكية  
 تسير عني قليلاً ثم تلتفت  
 فيا شوادي كم وجد وكم خرق  
 ويا زمالي ذا جور وذا عنيت

أما (سلطان العاشقين) عمر بن الفـِـص ، على عادة المتصوفة ، يدين  
في بداية قصيدته أسفه - بعد رحيل أحبته عنه - لأنه لم يعطهم حقهم من  
الإنصاف والوصل .

وأنت لم بذق لثعما للنوم بعد ارتخائهم :

قلبي يحـدثني بأنـك مـتـلـسـفـي

روحي فدك عـرـفـت أم لم تعرف

لم أقضِ حقَّ هـوَآك إن كُنْتَ الذي      لم أقضِ فيه أسي ، ومبلي من يقى  
ما لي سوى روحي، وبائلُ نفسه      في حباً من يهواه ليس بمسرف  
فلئن رَضيتَ بها ، فقد أسعفتني      يا خيبة المسعى إذا لم تسعف  
يا مابعي طيبَ المنام، وما نحى      ثوب السقام به ووجدي المتلف  
عطفاً على رمقي، وما أبقيتَ لي      من جسمي المضئ وقلبي المدنف

ثم يؤكد لمن يهوى - وقد ابتعد عنه - أنه باق على عهد الوصال وموathيق  
المودة ، وانه لم يجد راحة في بعدهم عنه وشاهده في ذلك نجوم الليل التي يظل رفيقا  
لها في سهرها ، وكلما طاف بخياله مشهد التوديع تنهل دموعه مدرارة .

فالوجـدُ باق، والوصـالُ مُماطـلـي

والصـبـرُ قان، واللقاءُ مُسـوـقـي

لم أخلُ من حسدِ عليك، فلا تُضع      سَهري بَشْنيعِ الخيالِ المُرجف  
واسألُ نجومَ الليلِ: هل زارَ الكرى      جفني، وكيف يزورُ من لم يعرف ؟  
لا غرو إن شحَّتْ بغمضِ جفونها      عيني وسحَّتْ بالدموعِ الدرف  
وبما جرى في موقفِ التوديع من      ألم النوى ، شاهدتُ هول الموقفِ

وأنظر إليه يرجو من يحب أن يصله ، فإن لم يكن وصلاً فهو راض بمجرد الوعد ، حتى ولو ما حلل في الوفاء به ، فقط يقنعه مجرد الوعد لعله يطفى ما يعتمل في نفسه من نار الجوى ، وقسوة البعد والهجران .

ألمي وماطل إن وعدت ولا تف	إن لم يكن وصل أذيك، قعد به
يحلو كوصل من حبيب مسعف	فالمطل منك لدي إن عز الوفا
ولوجه من نقلت شذاه تشوفي	أهفو لأنفاس النسيم تعلة
إن تتطفي، وأود أن لا تتطفي	فلعل نار جوانحي بهوبها
ناداكم يا أهل وذي قد كفي	يا أهل وذي أنتم ألمي ومن

وها هو يناشد أحبابه ويطلب منهم العودة إلى عهد الوفا كرماً وتلطفاً به وعطفاً على حاله ، ثم يقسم بحياتهم مبيناً أنه لو أعطى روحه لمن يبشره بقدمهم لم يكن منصفاً ، ويذكرهم بحقيقة مهمة ، وهي انه أخفى حبهم خوف الوشاة ، فنحل جسمه وصار خيالاً ، حتى كاد أن يختفي لشدة نحوله ، يقول :

كرماً فإني تلك الخلل الوفي	عوبوا لما كنتم عليه من الوقا
غمري بغير حياتكم ، لم أكلف	وحياتكم وحياتكم قسماً وفي
لمبشري بقدمكم ، لم أنصف	لو أن روعي في يدي ووهبتها
كلفي بكم خلق بغير تكلف	لا تحسبوني في الهوى متصنعاً
لعمري يكذب عني أختف	أخفيت حبكم فأخفاني أسى حتى

وفي قصيدة للشاعر ( عمر بهاء الدين الأميري ) ، تأمل مشاعره وأحاسيسه

بعدما ابتعد عنه أولاده الثمانية وسافروا إلى المصيف في حلب ، يقول :

بالأمس كانوا ملء منزلنا      واليوم ويح اليوم قد ذهبوا

في القلب ما شطوا وما قربوا  
وقد سكنوا وقد وثبوا  
وفي الدار ليس ينالهم نصب  
ودموع حرقتهم إذا غلبوا  
وبكل زاوية لهم صخب  
وفي الحائط المدهون قد تقبوا  
وعليه قد رسموا وقد كتبوا  
في علبه الحلوى التي نهبوا  
في فضلة الماء التي سكبوا  
عيني كأسراب القطا سربوا  
من أضلعي قلبا بهم يجب  
فإذا به كالغيث ينسكب  
بيكي ولو لم أبك فالعجب  
إني وبي عزم الرجال أب

ذهبوا أجل ذهبوا ومسكنهم  
إني أراهم أينما التفتت نفسي  
وأحس في خلدي تلاعبهم  
وبريق أعينهم إذا ظفروا  
في كل ركن منهم أثر  
في الناقدات زجاجها حطموا  
في الباب قد كسروا مزاجه  
في الصحن فيه بعض ما أكلوا  
في الشطر من تقاحة قضموا  
إني أراهم حينما اتجهت  
حتى إذا ساروا وقد نزعوا  
الفيتي كالطفل عاطفة  
قد يعجب العذال من رجل  
هيهات ما كل البكا خور

وقد يكون وداعا لإنسان مكروه ، مثل ما قاله أمير الشعراء في وداع اللورد  
كرومر القائد الإنجليزي الذي كان في مصر ساعة الاحتلال الإنجليزي لها عندما  
رحل عن مصر، ودعه قائلاً :

لما رحلت عن السبلاد تشهدت  
فكأنك السداء العيراء طويلاً  
أوسعتنا يوم الوداع إمـانة

أدب لعمرك لا يصيب مثيلاً  
هلا بد لك أن تجامل بعدما  
صاغ الرئيس لك التناكلاً  
أحسبت أن الله دونك قدرة  
لا يملك التغيير والتبديلاً

وهذا أبو العتاهية ينظر إلى التوديع من زاوية أخرى ، فهو يقصد توديع

الإنسان من الدنيا ، فيوصي المرء بوصايا منها :

عَلَيْكُمْ سَلَامٌ لَمْ يَلَمْ اللهُ إِنِّي مُؤَدِّعُ  
وَعَلَيْتَيْنِي مِنْ مَضِّ التَّفْرِقِ نَدْمَةً  
فَإِنْ نَحْنُ عِشْنَا بِجَمْعٍ مَعَ اللهِ بَيْنَنَا  
وَإِنْ نَحْنُ مُتَّعَا ، فَالْقِيَامَةُ تَجْمَعُ  
أَلَمْ تَرَ رَبَّ الدَّهْرِ فِي كُلِّ سَاعَةٍ  
لَهُ عَارِضٌ فِيهِ الْمَنِيَّةُ تَلْمَعُ  
أَيُّ بَانِي الدُّنْيَا لِفَيْرِكَ تَبْتَنِي  
وَيَا جَامِعَ الدُّنْيَا لِفَيْرِكَ تَجْمَعُ  
أَرَى الْمَرْءَ وَثَابِئاً عَلَى كُلِّ فُرْصَةٍ  
وَالْمَرْءَ يَوْمَئِذٍ لَمْ يَخَالِهُ مَصْرَعُ  
تَبَارَكَ مَنْ لَأَيْمَانِكَ الْمَلِكُ غَيْرُهُ  
مَتَى تَتَّقِضِي حَاجَاتُ مَنْ لَيْسَ يَشْبَعُ  
أَيُّ امْرَأَةٍ فِي غَايَةِ لَيْسَ نَفْسُهُ  
إِلَى غَايَةِ أُخْرَى ، سِوَاهَا ، تَطْلَعُ